١٠

الطريق إلى المدينة المنورة

حب ابـن بطوطـة لبـلاد الشـام

نقف هنا مع ابن بطوطة فى آخر مراحل زيارته لبلاد الشام ، ولا بد على أىّ حال أن نختم الحديث عن هذه الزيارة الأولى للشام لأننا لو استرسلنا فى التفاصيل التى يذكرها لما فرغنا ؛ لأنه - كما قلنا - مفتون ببلاد الشام يعجبه فيها كل شىء، وهذا شأن الكثيرين من رحّالة المسلمين من أمثال ابن جُبير والمقرى التلمسانى الذى نستطيع أن نسلكه فى زمرة الرحّالين .

والسبب فى هذا الحب الذى كانت تتمتع به بلاد الشام فى تلك العصور هو جمال مدنها واعتدال جوها وقلة ازدحام السكان بها وكثرة أماكن الزيارة ومواضع الذكريات الإسلامية فيها ، هذا بالإضافة إلى ما طُبع عليه أهلها من كرم الضيافة وحسن اللقاء؛ فكان الزائر يستريح ويشعر بالأنس ويفوز ببركة المزارات، ويفيد علماً ويلقى شيوخاً يفخر بهم بعد عودته إلى بلاده ، ويطول عنهم حديثه مع صحبه ، خاصة إذا كان من أهل العلم والسّماع .

وهذا ما حدث لأبى عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى ؛ فقد وقف فى نهاية هذه الزيارة الأولى وقفة طويلة عند مَنْ سمع منهم من شيوخ دمشق وأثنى عليهم ثناء عظيماً ، شأن كل طالب علم فى هذه العصور مع كل مَنْ سمع منهم من الشيوخ ؛ فقد كان الإنسان مختاراً

لشيوخه فى تلك العصور ، لأن العلم الذى كان يُدرس كان واحداً لا يتغير، وكان مسطوراً فى كتب معروفة يشبه بعضها بعضاً فى الموضوعات والتفاصيل ، وكان الاختلاف والتمايز فى أسماء الشيوخ الذين يسمع الإنسان عليهم ، فكان الطلاب يحرصون على السَّماع على المشاهير وأصحاب الصِّيت من الشيوخ « الذين تُضرب إليهم آباط الإبل » كما يقولون ، وفى أحيان كثيرة جدًّا نجد أن صِيتَ الشيخ لا يطابق حقيقة علمه، بل قد يشتهر بجودة التآليف وسوء المحاضرة فى الوقت نفسه ، ولكنَّ بُعْدَ صِيته بكتبه يستدعى إليه الطلاب من كل ناحية ، وكان الطلاب يحرصون على السَّماع على المشاهير للحصول على الإجازات الدراسية منهم.

والإجازة تتلخص فى أن يكتب الشيخ للطلاب عبارة تقول : «سمع علىَّ فلان بن فلان كتاب كذا وأجزت له روايته عنى » وكان الشيوخ يفتنُّون فى صيغ الإجازات ، حتى إن بعضهم كان يكتبها شعرًا ، وكلما كان شيوخه أكبر كان هو أكبر ، وحتى إذا كان الشيوخ صغاراً اجتهد الطالب فى تعظيم شأنهم تعظيماً لشأن نفسه ورفعاً لمرتبتها بين فقهاء بلده .

فابن بطوطة يفخر بسماعه صحيح البخارى على ابن الشحنة ، وهو شهاب الدين أحمد بن أبى طالب بن أبى النعم الحجازى ، وهو يصفه بأنه « الشيخ المعمَّر ، مُلْحِق الأصاغر بالأكابر » ، وهو يذكر أنه سمع عليه البخارى فى أربعة عشر مجلساً آخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان سنة ٧٢٦هـ/ الثامن والعشرين من أغسطس ١٣٢٥م .

مستوى علم ابن بطوطة بالفقه

وقد اجتهد ابن بطوطة فى تعظيم سماعه هذا ؛ لكى يقنع الناس بأنه درس علم الحديث فأتقنه ، فذكر النسخة التى قرأ عليها ووثَّقها ووثَّق صاحبها عَلَمَ الدين أبا محمد القاسم البرزالى الإشبيلىّ الأصل الذى يسمِّيه « مؤرخ الشام » ولم يقل أحد إن البرزالى هذا يُلقَّب بمؤرخ الشام ، وأطال

الكلام على إسناد هذه الرواية على نحو يشعر معه القارئ أن ابن بطوطة يريد أن يؤكد هنا أنه قد استكمل جانباً كبيراً من دراسته ، وأصبح من كبار العلماء ، وأيّد ذلك بذكر عدد آخر من الشيوخ سمع عليهم خلال هذه الفترة القصيرة التى قضاها فى دمشق .

وبرغم هذا الاجتهاد فى توكيد دراسته فستلاحظ أن حظّ ابن بطوطة من الفقه قليل ، وسيتجلّى هذا بصورة واضحة عندما يتولى القضاء ويمارسه فى الهند وجزر ملديف . هنا سيقع الرجل فى أخطاء كثيرة فى الأحكام ، وستؤدى به هذه الأخطاء إلى متاعب كثيرة !

خروج ابن بطوطة إلى الحجاز أول مرة

وفى مستهلّ شوّال من تلك السنة ، وهى سنة ٧٢٦هـ الموافق لشهر سبتمبر ١٣٢٥م خرج ابن بطوطة مع الركب الشامىّ قاصداً الحجاز ، وهو يسمّى الركب هنا بالركب الحجازىّ ، وهى تسمية أدق ؛ لأن الركب لم يكن يقتصر على حجاج الشام فحسب ، بل كان يضم حجاجاً كثيرين من العراق وخراسان وبلاد الروم - أى: آسيا الصغرى وبلاد ما وراء النهر وغيرها .

تنظيم ركب الحاج

ويعطينا ابن بطوطة تفاصيل نافعة جدًّا عن تنظيم الركب وخط سيره ؛ فقد كان للركب أمير من المماليك يسمّى سيف الدين الجَزْبان ، وهو من كبار أمراء المماليك ، ولم يكن الركب يسير قطعة واحدة ، بل كان يسير مجموعات ، كل مجموعة منها تحت حراسة جماعة من العرب أو العُرْبان - يأتمرون بأمر أمير الحاج، تؤيده قوة عسكرية من المماليك فى كامل أهبتهم لحماية الركب .

وكان سفر ابن بطوطة مع طائفة من العرب تسمّى العَجَارمة أميرُهم يسمّى محمد بن رافع ، ويصفه ابن بطوطة بأنه كان كبير القدر فى الأمراء ، وهذه ملاحظة تدل على أن العلاقة بين المماليك والعرب - أو العُرْبان - كانت طيبة فى ذلك الحين . ومن المعروف أن للعلاقات بين المماليك والعرب تاريخاً طويلاً فى مصر والشام والجزيرة العربية حافلاً بالعداوات

والحروب تتخلله فترات قصيرة من الصلح والتهادن ، وكان حكم الناصر محمد بن قلاوون من عصور الصلح والوفاق بين العرب والماليك ، وقد أفاد منهم الناصر كثيراً فى تثبيت قواعد ملكه .

طريق الحج من الشام إلى مكة

والطريق الذى سار فيه الركب هو الطريق التقليدى ، أو الدرب المعروف الذى ذكره غيره من الرحَّالة - وخاصة ابن جُبير فى رحلته الثالثة - وهو يخالف الطريق السابق على الحروب الصليبية ؛ لأن سيطرة الصليبيين على نواحٍ واسعة من الشام أوقفت طرق التجارة والحج من الشام إلى الحجاز كما سبق أن قلنا ، فلمَّا زال الصليبيون من الشام نشأت طرق جديدة لها مراحل ومنازل - أى : محطات - جديدة تختلف هى وما نجده عند المُقَدَّسى مثلاً .

وهذا الطريق يبدأ من الكِسوة - وهى منزل صغير يتجمع فيه الحجاج إلى جنوب دمشق - يشبه بركة الحاج إلى شمال شرق الفسطاط (بالنسبة لركب الحاج المصرى) - ومن الكسوة إلى قرية الصَّنَمَيْن ، ثم إلى بلدة زُرعة فى حوران ثم إلى بُصْرَى ، وهناك كان الركب ينتظر أربعة أيام ليتلاحق به المتخلفون من دمشق ، ولتنضمَّ إليه روافد أخرى آتية من نواحٍ أخرى من الشام .

ولا يفوت ابن بطوطة أن يذكر أن النبى ﷺ نزل بُصْرَى عندما خرج بتجارة السيدة خديجة - رضى الله عنها - قبل زواجه بها ، ويذكر أن موضع مَبْرَك ناقته هناك معروف قد بُنى عليه مسجد عظيم ، وكانت بُصْرَى مركزاً عظيماً للتزوُّد بالطعام وحاجات الحجاج.

ومن بُصْرَى إلى بركة نزيرة ثم إلى اللَّجُون حيث عيون الماء كثيرة تتجمع منها بركة كبيرة ، ومن هنا جاء اسم الموضع فهو لاتينى Lacuna ، ولهذا نجد مواضع كثيرة تحمل اسم اللَّجُون فى صقلية والأندلس ومعناه: البركة أو البحيرة .

حصن الكرك

وعندما يصل إلى حصن الكَرَك يقف عنده ابن بطوطة طويلاً ، ويصف حصانته ومدخله المنحوت فى الحجر الصلد ، وهو لا يشير إلى ما كان لهذا الحصن من تاريخ فى الحروب الصليبية ، وكيف أن أحد أصحابه من اللاتين - وهو ريجينالد دى شاتِيُّون - أراد أن يخرج منه لغزو الحجاز والأراضى الإسلامية المقدسة ، وكيف عاقبه صلاح الدين على ذلك بقتله عندما ظفر به ؟

ولكن ابن بطوطة يذكر ما كان لهذا الحصن من دَوْرٍ فى حياة الناصر محمد بن قلاوون ، وكيف كان هذا الحصن ملجأه فى فترات اختلاف الأمراء عليه ، وقد لجأ إليه عندما شغب عليه أمراؤه برياسة سيف الدين سلار ، ثم تولى الأمر بيبرس الجاشنكير حتى استعاد الناصر مُلكه وتتبَّع بيبرس الجاشنكير وقتله. وابن بطوطة يكتب اسمه الشَّشَنْكير ، ولا يفوته أن يترجم اللقب فمعناه: أمير الطعام، أى : وزير التموين كما نقول فى أيامنا هذه ، وسنلاحظ أن ابن بطوطة شديد الحرص على معرفة معانى ما يسمع من الألفاظ وترجمتها إلى العربية ، وتلك من فضائل كتابه ، وسنهتم بالتنبيه على أمثلة كثيرة من ذلك تَرِدُ فى ثنايا هذه الأحاديث .

معان آخر بلاد الشام

ومن الكرك إلى مَعَان ، وهى عند ابن بطوطة آخر بلاد الشام ، أى أننا بعد ذلك نسير فى الجزيرة العربية . ومن هناك إلى « عَقَبَة الصوان » ، وهى غير فُرضة العقبة المعروفة ، ثم إلى ذات حج ثم إلى تبوك ، وهنا يشير إلى عين الماء التى كان ماؤها شحيحاً ، فلمّا وضع الرسول الكريم ﷺ يده فيها فاضت بالماء ولا تزال تفيض بعد ذلك أبداً .

وهذه العين المباركة هى مورد الماء الأكبر للداخلين إلى الصحراء المَخُوفة الممتدة من تبوك إلى العُلا ، وابن بطوطة يذكر أن أمراء جماعات ركب الحجاج يحفر كل منهم حفرة يُبَطِّنُها بجلد البقر أو الجاموس ويكترى السَّقّائين ليملأها بالماء ليرتوىَ الناس والجمال ويتزود الركب بماء يكفى أربعة أيام على الأقل .

ويصف ابن بطوطة مشقة قطع المسافة من تبوك إلى العُلا ، وكيف يمر الركب بمساحات مَخُوفة تهبُّ عليها رياح السَّموم التى ينشف منها الماء داخل الروايا والقِرَب ، ويذكر كيف هلكت قوافل بأسرها بتأثير هذه السَّموم ؟

ديـار ثمـود

ويمر الطريق بديار ثمود التى يَتَحَامَاها أهل الركب ويَـحْذَرون المرور بها، ويصف ابن بطوطة ديار ثمود المخوفة هذه وما فيها من آثار أولئك القوم الذين سخط عليهم الله سبحانه وتعالى فما أبقى ، وبلغ الأمر أن يرفض الناس استقاء الماء من بئر حِجْر ثمود ، ويشير ابن بطوطة إلى مَبْـرَك ناقة النبى صالح عليه السلام ، ثم تنكشف الغمة عندما يصل الركب إلى العُلا ، وهى قرية كبيرة حسنة بها بساتين النخل والمياه المَعِينَة ، وفى العُلا - كما نعرف - عثرنا على أحد النصوص القليلة للكتابة العربية فى تطورها قبل الإسلام .

ويقيم الركب فى العُلا أربعة أيام يتزودون بالماء ويغسلون ثيابهم ، ثم يرحل الركب فينزل بوادى العِطاس الذى تهبُّ عليه السَّموم المهلكة ، ثم يصل الركب إلى حسيان هُدْيَة ، وبعد ثلاثة أيام يصل إلى خارج المدينة المنورة ؛ مدينة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - .

مدائن صالح

وقد أوجز ابن بطوطة وصف الطريق من مدائن صالح إلى المدينة بخلاف ابن جُبير الذى يُفيض هنا فى الوصف ، ويسترسل فلا يترك شيئاً مر به إلا ذكره . ولكن الذى نلاحظه هنا هو أمان الطريق ، فنحن نسير مع ابن بطوطة فى طريق آمن هادئ لا يهدد أمن السائر فيه شيء؛ وتلك ظاهرة ترجع إلى كفاية الحكومة المملوكية فى أيام الناصر محمد بن المنصور قلاوون فى ولايته الثالثة على الأقل ، فالحق أن الدولة المملوكية بلغت أوجها فى هذه الفترة ، وساد نواحيها الرخاء ، لأن الناصر محمد بن قلاوون - بعد المتاعب التى عاناها من مماليكه - عرف فى النهاية كيف يضبط أمور دولته

ضبطاً تامًّا، مستعيناً – فى ذلك – بنفر من خيرة أمراء المماليك . يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق والغرب عن طريق مصر بلغت أوجها فى ذلك الحين ، وبلغ دخل الدولة المملوكية منها أقصاه، والفضل فى ذلك راجع إلى كفاية الناصر محمد بن قلاوون ..

وبعد هذا السلطان يبدأ انهيار الدولة المملوكية فى أيام خلفائه ، وكانوا جميعاً سلاطين بالاسم . وخلال فترة ما بعد الناصر محمد بن قلاوون يهبط مستوى الحكم فى سلطنة مصر والشام هبوطاً سريعاً ، وتهزل الحياة والأحداث إلى مستوى يجعل صفحات تاريخ مصر بعد الناصر سرداً مملًّا لحوادث تافهة حيناً ومؤلمة حيناً ، ويهبط نبض الحياة ، ونحسُّ أننا فى آخر عصر .

* * *